بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة التّاسعة الفنون النّثريّة: المقالة

تمهيد:

انفتحت الأوطان العربية على كنوز الفنون النثرية الغربية ومنها ما أطلق عليه سمية المقال، تعود بداية ظهوره إلى العصر الحديث حيث عرف رواجا منقطع النظير وفي كل الأقطار العربية، تغيا المقال معالجة قضايا الوطن العربي على شكل موضوعات مستقلة الطرح وعلى مختلف الأصعدة فكان للمقال طرائق في المعالجة تراوحت طرحا، وتبسيطا، وتحليلا، ونقدا، وعليه، ما هو مفهوم المقال لغة واصطلاحا؟ كيف كانت نشأته في العصر الحديث؟ وما هي أنواعه وخصائص كل منها؟

أوّلا- مفاهيم أوّليّة:

1- المفهوم اللّغويّ للمقال:

يجعل ابن منظور في لسان العرب المادة كلها تحت مسمى " قول "، كما حدد مجموع ما وردت عليه من صيغ في لغة العرب ودلالتها، "تقول: قالَ يَقُولُ قَوْلا، والفاعل قائِلٌ، والمَفْعُولُ مَقُولٌ.. والجمع أَقْوالٌ، وأَقاوِيلُ جمع الجمع..، وقيلا وقولة ومقالا ومقالة.. الكلام على الترتيب وهو عند المحقق كل لفظ قال به اللسان تاما كان أو ناقصا"[1]، ومما يجدر بنا التنبيه إليه هو إشارة ابن منظور إلى تفريق العرب في لغتها بين الكلام والقول وذلك حسب سبويه، فـ"(قُلْت) في كلام العرب إنما وقعت على أن تحكي بها ما كان كلاما لا قولا، يعني بالكلام الجمل كقولك زيد منطلق.. ويعني بالقول الألفاظ المفردة التي يبنى الكلام منها كزيد من قولك زيد منطلق.. ، فأما تجوزهم في تسميتهم الاعتقادات والآراء قولا فلأن الاعتقاد يخفى فلا يعرف إلا بالقول أو بما يقوم مقام القول من شاهد الحال، فلما كانت لا تظهر إلا بالقول سميت قولا إذ كانت سببا له وكان القول دليلا عليها "[2]، الاعتقاد من سماته أنه خفي لا يدرك بالنسبة للمتلقي إلا أن هذا الخفي يمكن أن يتهيأ له من الأسباب ما يجعله ظاهرا وذلك بتوفير سبب من القول فيصبح الخفي ظاهرا، وهذا لأول تجوز أحدثته العرب في لغتها، إلا أنه يمكننا أن نحدث تجوزا ثانيا منطلقه تسمية المعتقدات والآراء المكتوبة مقالا ومقالة، ووجه المقاربة بين الدلالة اللغوية في القاموس التراثي وبين الاستخدام اللغوي المعاصر هو المعتقدات والآراء غير المرئية الظاهرة بسبب القول ولكن مع فارق كونها مكتوبة.

2- المفهوم الاصطلاحي للمقال:

حسب معجم النقد الأدبي المقال "نص استنتاجي أو استهلالي يقوم بتحليل جانب من موضوع ، هذا النص يجمع أفكارا ورؤى حول موضوع أو عدة مواضيع من خلال نظرة فاحصة أو من خلال تجربة الكاتب ولكنه لا يزعم أنه استوفى الموضوع كله"[3] ، هذا المفهوم أخذ بعدا عاما ولهذا نجد يوسف نجم يجعل مفهوم المقال أكثر خصوصية من الوجهة الأدبية حيث يرى بأن "المقالة الأدبية قطعة نثرية محدودة في الطول والموضوع تكتب بطريقة عفوية سريعة خالية من الكلفة والرهق وشرطها الأول أن تكون تعبيرا صادقا عن شخصية الكاتب"[4].

ثانيا- أسباب وجود المقال:

1- الصّحافة: ولدت المقالة في أحضان الصحافة فكانت أفضيتها بمثابة التربة الخصبة التي احتضنت المقال أولا، ثم عملت بعد ذلك على تهيئة الأجواء لنمو، وتطور، ونضج وازدهار هذا الأخير، والسبب الذي جعل الصحافة تأخذ هذا الدور الريادي كامن في اعتماد الصحافة على فن المقالة أكثر من سواه[5] من الأشكال الأدبية المعروفة في العصر الحديث، فاحتوت الصحف الكتاب وفسحت أمامهم المجال ليكتبوا المقالات في المجالات السياسية، والاجتماعية، والأدبية، والنقدية، وبما أن الكتاب كانوا على مشارب خضعت الصحافة لذلك فتنوعت هي الأخرى بتنوع مشارب الكتاب فكانت كثيرة لاستيعاب إنتاجيتهم وتنوعت بتنوع كتاباتهم.

2- الأوضاع العربية: اتخذ المقال كوسيلة ناجعة لمواكبة مجموع التغيرات التي كان الوطن العربي يمر بها من ظهور الأحزاب، والثورات، وبروز أفكار الوطنية والقومية، ومناهضة الاستعمار، فسعت المقالات قدما للمشاركة في الحركة الإصلاحية الكبرى من خلال نقد وتحليل أوضاع العالم العربي ومحاولة التغيير والإصلاح.

3- المدرسة الشآمصرية: هجرة الشآميين وتفاعلهم الإيجابي مع المصريين في باب إنتاجية المقال فتتعاضد الجميع ضمن مسمى المدرسة الشآمصرية حتى أنتجت المقال العلمي، والمقال الأدبي، والمقال النقدي، كما نوعت بين مقال الصحف ومقال المجلات.

رابعا- المقال العربي الحديث (النّشأة . الأنواع . الخصائص):

مر المقال الحديث بثلاثة مراحل ، وفي كل مرحلة عرف أنواعا وخصائص ميزته وتفصيلية ذلك على النحو الآتي:

1- المرحلة الأولى: وتبدأ من حملة نابليون إلى غاية بداية حكم الخديوي اسماعيل وقد مثلت مرحلة الميلاد وبدايات النمو، غير أننا سنتجاوز الكلام عن المقالات التي تخص عهد نابليون خاصة وأن الدراسات العربية قد سكتت عنها فغيبت بذلك مباحث من حيث ثيماتها، وطبيعتها، ولغتها، وأخيرا خاصياتها، وعليه سنعمل على تجاوزها ليبقى الحديث عن النشأة الفعلية للمقال الحديث مع بداية مرحلة حكم محمد علي مصر، وبهذا تبدأ الدراسات في الكشف عن الشرارات الأولى التي قدحت فكرة المقال وذلك بفضل جهود رافع رفاعة الطهطاوي الذي زاحم الحلم العسكري والعلمي لمحمد علي وأصبح مُهدِّدا بميلاد المقال وهو يشهد مد الوصال مع مجالات الأدب والسياسة والحياة الاجتماعية، فـ"إليه تنسب أول محاولة مستحدثة لإنشاء فن المقال الذي لم تكن قد ألفته الصحافة المصرية من قبل"[6]. وإلى جانب الطهطاوي تذكر أسماء كتاب آخرين ساهموا في كتابة المقال وهم عبد الله أبو السعود، ميخائيل عبد السيد، محمد أنسي، سليم عنحوري.. وغيرهم، وقد توسع نشاطهم بأن أسسوا صحفا أخرى أضيفت إلى الوقائع المصرية كوادي النيل 1866، الوطن، روضة الأخبار1875، ومرآة الشرق.

ومن أهم الخصائص الثيمية لكتابات هذه المرحلة أن "الشؤون السياسية هي الموضوع الأول لهذه المقالات ولكن الكتاب كانوا يعرضون أحيانا لبعض الشؤون الاجتماعية والتعليمية"[7]، أما من حيث الخصائص الفنية فقد "ظهرت المقالة على أيديهم بصورة بدائية فجة وكان أسلوبهم أقرب إلى أساليب عصر الانحطاط فهو يزهو بالسجع الغث وبالمحسنات البديعية والزخارف المتكلفة الممجوجة"[8]، والمنتشرة على جسد النص، وبهذا أسهموا قليلا في المحافظة على الخاصيات الكتابية الممتدة الوصال مع عصر الانحطاط، إلا أن هذا لم يدم طويلا فقد استدرك الطهطاوي الوضع لاحقا بعد أن مال إلى الأسلوب المرسل المصفى من الخاصيات الكتابية لعصر الضعف، وبهذا تبقى الإنتاجية الطهطاوية محاولة تأسيسية للمقال العربي الحديث فتح المنافذ على من سيأتي بعده.

2. المرحلة الثّانية: تمتد المرحلة الثانية من بداية حكم الخديوي اسماعيل إلى غاية نهاية العقد الأول من القرن العشرين، و شهد فيها المقال تطورا على يدي جمال الدين الأفغاني وكل الذين تتلمذوا على

يديه "ومن أشهر هؤلاء الأعلام (أديب اسحق – محمد عبده – النديم) وكلهم ممن ارتبط تاريخهم بتاريخ الكفاح الوطني المصري"[9]، فضلا عن أسماء أخرى "سليم النقاش، وسعيد البستاني..، وابراهيم المويلحي، ومحمد عثمان جلال، وعبد الرحمان الكواكبي، وبشارة تقلا"[10]، ومن أهم الصحف التي نشروا بها مقالاتهم، الأهرام، مصر، التجارة، الفلاح، الحقوق[11].

وعن الخاصيات الثيمية لهذه المدرسة فقد تمثلت في الأغلب الأعم في "الدفاع عن الشعوب" ومناقشة الحكام في سلطتهم، وحق الشعوب، وبشرية الحاكم، والعمل على إصلاح المفاسد الاجتماعية"[12]، وسبب الاستناد إلى هذه الثيمات راجع إلى الترابط القوي بين المقال وبين الحركة الإصلاحية التي تزعمها جمال الدين الأفغاني ثم واصل حمل مشعلها محمد عبده وبقية تلاميذه. وأما عن أبرز الخصائص الفنية فقد تحللت مقالات المرحلة الثانية "من قيود السجع إلى حد بعيد وأخذت تقترب من الشعب شيئا فشيئا، وذلك بتأثير الشيخ محمد عبده وحركته الإصلاحية"[13]، ومما أضافه الطويل من خاصيات أنها تميزت بالتأثر بأسلوب القرآن الكريم، كما عولت على اللفظ المختار والعبارة المرسلة وبهذا تكون المقالة في هذه المرحلة الثانية "قد خطت بالمقال خطوات موفقة من حيث الفكرة والأسلوب والأداء الفني الذي جاوزت به في خطاها دور الصبا"[14].

3- المرحلة الثالثة: وتمتد هذه المرحلة الأخيرة من بداية العقد الثاني وتنتهي قبيل نهاية الحرب العالمية الثانية 1945م، حمل المشعل فيها مجموعة من الأدباء والكتاب فبلغوا بالمقال الحديث مرتبة النضج والازدهار، توزعت كتابات هؤلاء على عدد من الصحف الحديثة التي عرفت شيئا من التنوع والتخصص، كما أضيفت إليها المجلات*، ومن أهمها الزهراء، الجديد، البلاغ الأسبوعي، الناقد، الرسالة، الفجر، المجلة الجديدة، أبولو، الشباب، الثقافة، الكاتب المصري، وأخيرا الكتاب[15] .

ومن أبرز خصائص المقال في هذه المرحلة الأخيرة أن تنوعت المقالات فهناك السياسية والذي شجع على بروزها هو ظهور فكرة الأحزاب السياسية التي كان ينتمي إليها أغلب كتاب المقالات، فكانوا يطرحون آراءهم عبر الصحف خدمة لتلك الأحزاب كطه حسين، العقاد، ومحمد حسين هيكل و"يعتمد المقال السياسي على رصيد ضخم من الثقافة والمعرفة والوعي السياسي"[16] بمجريات الأحداث سواء باسم القومية أو الوطنية أو العربية، والنتيجة مع المقالات السياسية الحديثة إما أنها واكبت الثورات العربية فأذكت الروح الوطنية فيها، أو أنها عملت على إنتاج تلك الثورات القائمة أساسا على تحريض الشعب ضد المستعمر في الوطن العربي. وهناك المقال الاجتماعي الذي تخصص في معالجة مجموع القضايا الاجتماعية التي عانت منها الأمة العربية في العصر الحديث،

ومنها المرأة، التخلف، الجهل، الانحراف، الأمية، وقد "برز قاسم أمين بمقالاته التي تدعو إلى الإصلاح الاجتماعي وتعليم المرأة وتحريرها من الجهل والتخلف، ونشر هذه المقالات في صحيفة المؤيد ثم جمعها في كتاب تحرير المرأة"[17]، ومن كتاب المقال الاجتماعي من ركز على فئة الشباب وهي فئة حساسة في المجتمع وقد تطرق إليها البشير الابراهيمي في محاولة منه لإصلاح هذه الشريحة الحساسة والهامة في المجتمع، وترغيبهم في الصورة الإيجابية التي ينبغي أن يكونوا عليها ليفيدوا أمتهم ووطنهم**، وهو بذلك يساند جهود الحركة الإصلاحية لجمعية العلماء المسلمين بالجزائر من خلال المقال كوسيط إصلاحي في المجتمع الجزائري. أما مصطفى لطفي المنفلوطي فقد "اشتهر.. بمقالاته الاجتماعية التي تدعو إلى الفضيلة والتراحم والتكافل الاجتماعي ومحاربة الفقر والبؤس، بينما اتجه أحمد أمين بمقالاته إلى محاربة بعض جوانب الفساد الاجتماعي ونقد بعض الأوضاع الاجتماعية"[18]. وهناك أيضا المقال النقدي وهو يركز على معالجة قضايا نقدية من باب التأصيل للخطاب النقدي الحديث، وقد تزعم ذلك ثلة من النقاد وعلى رأسهم العقاد، المازني، عبد الرحمان شكري، طه حسين، الرافعي، "وحسبنا أن نعلم أن كتاب حديث الأربعاء أجزائه الثلاثة لطه حسين قد جمعه من مقالات نشرها في صحيفة سياسية"[19]. كما كانت المقالة النقدية وسيلة لخوض معارك نقدية في العصر الحديث ومن ذلك هجمة العقاد والمازني النقدية ضد شعراء الحركة الإحيائية ممثلة في أحمد شوقي وحافظ ابراهيم، وكذا ما كتب من نقد في حق عبد الرحمان شكري، ومجموع المعارك بين العقاد والرافعي. وأخيرا المقال الوصفي الذي خص به وصف الطبيعة أو الأمكنة ذات المناظر المؤثرة، ومن أهم ما تميزت به المقالة الوصفية كون كتابها يعكسون عبر هذا الفضاء انفعالاتهم ومشاعرهم إزاء تلك الموصوفات، كما لايخرج الواحد من كتابها أن تكون المقالة الوصفية نسيجا من "تأملاته الشخصية في الحياة والناس"[20] حتى تصبغ بالصبغة الذاتية، كما أن الجانب الوصفي يعول كثيرا في بناء " قيمتها الحقيقية على دقة الملاحظة وعلى التعاطف العميق مع الطبيعة الذي لا يحور إلى عاطفية مسرفة. ثم على الوصف.. المعبر الذي ينقل أحاسيس الكاتب وصورة الطبيعة كما تنعكس على مرآة نفسه بصدق وإخلاص"[21]. ونقرأ في هذا النوع للعقاد وصف قصر ملا، وصف جنة قصر ملا، ومقال جمال الطبيعة نشره بجريدة المؤيد 18 مايو سنة 1914م، و مقال بين الله والطبيعة نشر في جريدة البلاغ 19 / 2/ 1924م[22]، و يعلق عليها الطويل بعد جمعها بأنها قليلة موازاة مع نتاج العقاد النقدي، ومن الأمثلة المضافة "وحي البحر، وبجوار شجرة ورد، ومع الطير لأحمد أمين، والصخور لميخائيل نعيمة..، والربيع للرافعي"[23].

ومن خصائص مقالات المرحلة الأخيرة أننا نجد النسيج اللغوي للمقال في عمومه قائم على استعمال الألفاظ المفهومة تجنبا لكل غموض أو لبس دلالي عند القارئ، لغة سلسة بنيت في الأغلب الأعم على عنصر الاختيار لألفاظ مستوحاة من القاموس اليومي والمتداولة في العصر الحديث، والغاية من جعل اللغة على هذه المواصفات حتى لا تكون ممجوجة بالنسبة للذوق الحديث، ولتضمن بذلك سهولة فهمها لدى القراء[24]، خاصة بعد الانتشار الواسع للمقروئية المتعلقة بالمقالات وبمختلف أنواعها، فضلا عن "تطويع اللغة وتهذيب أسلوب الكتابة بحيث أصبح أداة مؤاتية لنقل الأفكار الحديثة "[25]، غير أن البنية الغوية المتوزعة على جسد المقال قد شذت بنسبة قليلة عند بعض الكتاب بالميل إلى المعجم التراثي كما هو هو الحال عند البشير الابراهيمي، أو بعدم سلامتها من الحشو والاستطراد فضلا عن الميل بلغة المقال إلى العامية مثلما هو الحال في بعض كتابات أحمد أمين[26].

ومن الخصائص استقلال كل كاتب بظاهرة أسلوبية محددة، فطه حسين الذي تفرد بأسلوب الترادف والتكرار، والعقاد والمازني قد عرفا بظاهرة أسلوبية أخرى خصت التهكم والسخرية، في حين الفكاهة فهي ظاهرة أسلوبية مخصوصة بكتابات المازني وزكي مبارك.

ومن الخصائص أن اعتمدت أغلب المقالات الحديثة على الأسلوب المرسل لتبيح لنفسها فسحة التحرر من أساليب عصر الضعف، كما يساعد ذلك على تبسيط الأفكار وعند آخرين يساعدهم ذلك "على استيعاب المعاني والثقافات الغربية"[27]، مع تفعيل الغايات الإصلاحية والخروج في بعض المواقف عبر المقال إلى مجالات الوعظ، ولكن هذا لم يمنع بعض كتاب المقال من التقيد بتراث السلف حتى احتفظوا منه ببعضٍ من لوازم أسلوب السجع ضمن خاصيتي التكلف والصنعة، فكان أسلوب الزيات قائما على "ضفيرة منسقة من الألفاظ الموسيقية المجلجلة..، أو هو قوالب جاهزة يلبسها لكل فكرة ويلقيها على كل موضوع دون أن يحاول الخروج عن النسق المعتاد أو السنة المقررة ودون أن يعنى بتحوير القالب وتهذيبه بحيث يلائم الشكل المطلوب"[28]، أما عند المنفلوطي فقد تورط "في السجع والإسراف فيه في غير مواضعه المستحبة في أحيان كثيرة"[29].

وفي ختام هذه الأوراق يمكننا القول بأن المقال استطاع في حضن الصحافة والمجلة أن يكون قالبا هاما من قوالب الفنون النثرية الحديثة اكتملت صورته على مدار العصر الحديث حتى استوى على سوقه فنا عربيا حديثا مستقلا بذاته يحوي من الخصوصية ثيميا وفنيا الكثير.